الفنّ

كنت أرجأتُ الحديث عن « الفنّ الفرعونى » الذى أراد الدكتور طه حسين أن يجعله أحد العناصر فى « الغذاء الروحى والعقلى للشباب » فى عصرنا هذا ، وهو رأى متداولٌ قد دعا إليه فلان وفلان ممن استطارتهم العصبية فعصفت أعاصيرها بعماد الرأى وحسن البصر وكمال التقدير لما ينبغى أن تقيم عليه حضارتنا المصرية الإسلامية . والعصبية هى دليل الضعف ، وهى الآفةُ التى تتخون الرأى ، وهى الهدّم الذى يأتى بنيانَ العقل والعاطفة من القواعد حتى يدمّره تدميراً . وسنوجز القول ما استطعنا ، فإن الإفاضة والشرح والبيان مما لا يتسع لها هذا الباب .

فالفنان هو القلب النابض الذى يُفضى إليه الدمُ الحى الذى تعيش به حضارة أمته فى عصره ، وهو الفكر القلق النافذ المتلفت الذى ينقد الحياة الاجتماعية فى عصره يألفها أو يُنكرها ، وهو العبقرية المارِدة التى لا تخضع إلا لناموس الحياة الأعظم . والفنان بطبيعته الإنسانية فكرة معبرة عن حقيقة الاجتماع الإنسانى الذى يعيش عليه ، وعن طبيعة الأرض التى يمشى فيها ، والسماء التى يستظلُّ بها ؛ وكل أولئك ينشئ للفنان أفكاراً وأخيلة وأحلاماً تستمد غذاءها من ينبوعها الذى يتفجر بين يديه ولعينيه وفى قلبه

ونحن لو تتبعنا الآثار الفنية وتاريخها فى كل أجيال الناس من الهند والصين والعرب والترك والروم ، وكل الأمم القديمة ، وسائر الأمم الحديثة — لم نخطىء أثر الحياة الاجتماعية فى الأثر الفنى ، ولا أثر الطبيعة الجغرافية فى جوّه الفنى . ونعنى بالحياة الاجتماعية كل ما تقوم عليه من الدين وعقائده وشرائعه ، وما يتميز به العصر من الأخلاق والعادات والوراثات والأساطير الشعبية التى انحدرت إليه من القدم ، ثم سائر أسباب الحضارة المعاصرة بكل مادتها وألوانها وحقائقها وأباطيلها . وأما الطبيعة الجغرافية ، فهى صورة الأرض بنباتها وأنهارها وفدافدها وحيوانها وغابها ، وما إلى ذلك ، وجو السماء بصفائه والتماعه وشممه وقمره ونجومه وسحابه وثلوجه وصيفه وشتائه وربيعه ، وغير ذلك مما يولّد فى نفس الفنان ألواناً من أخيلة الفن التى يريد تحقيقها أو تمثيلها أو إبداعها ؛ والأثر الفنى لا يمكن أن يكون خالياً من تأثير هذين العنصرين المميزين

فالفن — ولا شك — نتيجة من نتائج الاجتماع الإنسانى والطبيعة التى تحتضنه ، فهو يتأثر بها تأثراً بيناً ، لمكان الإحساس المرهف البليغ من الفنان القدير المتمكن . فأعظم الآثار الفنية التى يعدها الجيل الأوربى — مثلاً — فى طليعة العبقرية الفنية ، هى الآثار العظيمة الخالدة ، التى نشأت وربت وترعرعت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية ، التى عاش فى مدنيتها الفنانون الذين أبدعوها ، وتأنقوا فيها وبالغوا فى إتقانها ؛ ونحن لا نحتاج هنا إلى أن نضرب المثل بفلان وفلان من الفنانين الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم ، ولا أن نعدّد آثارهم التى بقيت إلى اليوم أصلاً للفن الأوربى الحديث . وهذه الآثار كما يشاهدها المشاهدون تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية التى هى سببٌ ثان فى إنتاج الفنان . فكذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش فيه الفنان الصينى أو الهندى ، وبطبيعة البلاد الهندية والصينية . ونحن لا نشك أن أعظم الفنون والآثار عامة قد كان نتيجةً لازمة للعقيدة الدينية — وثنية كانت أو إلهية — وللطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها ؛ وأن الدين والعقيدة هما عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر فى توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها ، فهما إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجتْ عليهما فأهملتهما . وذلك لأن الشعوب تحتفظ من الأديان بخصائص كثيرة لا يمكن أن تؤثر فيها تطوراتُ الحضارة المدنية الخاضعة للعلم والسياسة وما إليهما .

الفن الفرعونى

فالفن الفرعونى — بغير شك — ليس إلا نتاجاً مركباً من الوثنية المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية الرائعة القوية ، وأثرها بيّن فى هذه الأبنية الضخمة بتماثيلها الغريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة ، وعلى الأصول

الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التي كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم . فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة ، وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخيفة ، واستمدت تهاويلها من الإيمان بجبرية هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والنسماح وكذا وكذا من الأوهام الغالية ، هى التى أنتجت هذا الفنّ المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهرغليفية المعبّرة أدقّ تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية الفرعونية

والفنّان الفرعونىّ لم يستطع أن ينشىء هذه الآثار الهائلة الغريبة التى بقيت هذه القرونَ الطوال تتحدى الزمانَ المتطاول عليها ، ولم يمنحها هذا الجبروتَ الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى أنشأتها ودبرتها له عقائدُه الوثنية الرهيبة ، وإيمانُ المجتمع المصرى بها إيماناً خاضعاً متعبداً أيضاً ، وأعانتها الطبيعة الجغرافية المصرية العظيمة بشمسها وقمرها وصيفها وشتائها ، وصحرائها التى تحفّ بالنيل العنيف المتدفق بسلطان طاغٍ كسلطان الفراعنة الملوك . كل أولئك أثار الفنانَ وأمد إحساسه المرهف بالمادة التى استطاع أن يصوغ فيها فنه الوثنى العبقرى

وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعوني ـ على دقته وروعته وجبروته ـ إن هو إلا فنٌّ وثنىٌّ جاهلىٌّ قائمٌ على التهاويل والأساطير والخرافات التى تمحقُ العقل الإنسانىّ ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية ـ سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أم إسلامياً أم غير ذلك من أشباه الأديان

تمثال نهضة مصر

وهذا « تمثال نهضة مصر » القائم فى « ميدان المحطة » ، والذى أقامه المثال القدير « مختار » ، أنا أراه فلا أرى فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دثرت وبادت ولا يمكن أن تعود فى أرض مصر مرة أخرى بوثنيتها وأباطيلها وأساطيرها وخرافاتها . نعم ، هو تقليد رائع يدل على قدرة الفنان الذى نحته ، ولكنه لا معنى له الآن فى مصر الإسلامية . هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد فى مصر تاريخ الوثنية الجاهلية ، واجتماعَ الحضارة الفرعونية ، وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى شادها أولئك ، والتى كانت وحياً للفنان الفرعونى الذى عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له بكل معانى الربوبية ، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التى قذفها فى قلبه أباسلة عصره من الجبارين والطغاة؟ وهل يستطيع أن يجعل فى أرض مصر شعباً وثنياً متعبّداً للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصرى القديم؟ ولكن أفى مصر الآن من الشعب من يستطيع أن يجد له معنًى أو تأثيراً أو اهتزازاً إلا من القدم وأخيلة القدم ؟ كلا ... كلا

لقد ذهب كل هذا ، لقد دثر ، لقد باد . إن الأصول الفنية التى يكون بها الفن فناً قلما تتغير ، وهى ممكنة دانية فى كل الآثار على اختلاف أنواعها وبلادها وأراضيها وأديانها ، ولكن روح الفن هى دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته ، وهى التى تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع ، وهى التى ترفع فنه أو تضعه

وإذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعونى — كما استمد « مختار » — ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعاً إسلاميا ، ثم استمدادِنا أيضاً من الفن الإسلامى ـ تناقض عجيب فى أصل الرأى ، لا يمكن أن يكون ولا أن يُعمل به إلا إذا شئنا أن نوجدَ لمصر حضارةً مقلّدة ضعيفة ملفّقة من أشياء ليست نتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصرى الإسلامى الحديث الذى ندعو إليه ويدعو إليه الدكتور طه حسين !!

وبشر أيضاً !!

يقول بشار بن برد لخلَف بن أبى عمرو فى حديث جرى بينهما معابثة ومزاحاً :

ارفق بعمرو إذا حركتَ نسبته فإنه عربىٌّ من قواريرِ

وصديقى « بشر » قارورة عطر نشوان من نفحات روحه ، قارورةٌ عربيةٌ معربدةٌ تختال بطيبها تيّاهةً من الخفة والطرب . وأنا أرفق به ولكنه يأبى — كرماً منه — إلا أن يتحطم فى يدى ليسكب طيبَه عليها فيعبَقُ بها ، ويبقى أبداً يتضوع منها نسيما يسكر ، ويَعلق بهذا القلم من عطره أثرٌ خالد كرائحة الحبيبة فى ذكرى المحب ، و « للرسالة » بعد ذلك من شذاه ما يفور وما يتوهج وما يسطع من نضح عبيره

وبشر ـ هذا الإنسان الرقيق ـ يتجهم لى ويملأ علىّ « بريد

الرسالة » زلزلة ورعداً وبرقاً وصواعق ... ويبصرني بفروق اللغة بين « وَضَع بحراً » و « اخترعه » ! ! وأنا بلا شك لا أستطيع أن أشغل نفسي بتبصيره بمنطق اللسان العربي . ثم لا يكتفي بهذا بل هو يغلو في تقديري فيمدني من « الحُمْق » الذي يقف على معاني الألفاظ العربيـــة من « الإكباب على قراءة الصحف اليومية » ! ! كلا ، بل يجوز ذلك فيمـلّمني مجاز العربية وحقائق بيانها ودقائق ألفاظها ! ! أوَّه ، بل هو يعرّفني بالقرآن لأني « من عامة الناس في هذا الزمان » ممن يفهمون القرآن — كلام الله — بما يغلب عليهم من عامية العصر ! ! ولا يكون كل ما يكتبه « بشر » من علمه هذا « إلا على جهة التسلي والتلهي » ! بلى ، فهو يرحمني ويشفق على أن يدخل بي في المقاييس العربية الدقيقة الغامضة التي تستهلك قوةَ العقل والإدراك ، فهو يأخذني من قريب ! ! وأنا قد أخطأتُ وأسأتُ وأثمتُ وحَبِط عملي ، وحَمَقني اندفاعي إلى شعر بشر « أتلمس » — هكذا قال بشر — أتلمس له الخطأ ! !

ولا كلَّ هذا أيها العزيز ، « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » ، وأنا يا بشر لا أطاولك في علم ولا فقه ولا بيان ولا معرفة ، فأنت أنت ، وأنا حيث أنا من العجز والبلادة ، ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

ومن جَهِلتْ نَفْسُه قدرَهُ رَأَى غيرُهُ منْه ما لا يَرَى

وأنا يا صديقي أقل شأناً وأضعف من أن أجري في عنانك ، ولكنك — إذ كتبت ورددت وأعطيتني فوق ما أستحق في نفسي — تحملني على المركب الصعب ، فكان أولى بك أن تهملني ، فأما إذ أبيت فلا بأس عليك إذا أنا أقمت نفسي معك ؛ فاصبر على هذا البلاء « فالحرُّ يظلم أحياناً فيَظْلِم »

وقد زعموا — أيها العزيز — أنه كان رجل عِبَادِيٌّ بالحيرة البيضاء ، فلاق ضحضاحاً من الماء لابد له أن يجوزه ويخوض فيه ، فاستمان الله وأقبل على الماء — وهو إلى الكعبين حسبُ — فلما دخله صاح : « الغريقَ ، الغريق ! » يستنجد أصحابه ، فتناولوه يسألونه : ما دعاك إلى هـذا وليس غرقٌ ؟ فقال : « أردت أن آخذ بالحزم »

وأنت — أيها الصديق — تأخذ بهذا الحزم ، فتهرول إلى « لسان العرب » ، و« أساس البلاغة » و« الألفاظ الكتابية » تحشد لي ما جاء فيها من مادة العربية في قولهم « زلزل » ولا تكتفي بهذا بل تسعى إلى « الأغاني » (طبعة بولاق !) تقلب أوراقه ، تستخرج تراجم المغنين وأصحاب الملاهي كاسماعيل بن جامع وإبراهيم ابن ميمون الموصلي — وغيرهما في دواوين العربية وأصولها — فتفلي ألفاظها وتجري عينيك وراء أصبعك على حروف الكلمات عساك تقع على جملة يكون فيها « زلزل » وما يخرج منها وما يتداعى إليها ، ولا تكتفي أيضاً فتتناول من بين كتبك أحد فهارس القرآن الكريم — « وهو الحجة العليا في مثل هذه المشكلات » — كما قلت وإن لم تقل ، فتجد اللفظ في آيات بينات منه . فتجمع ذلك كله في مقالك — أو ردّك عليّ — حشداً بارعاً عظيما تُضاهي به عمل « المستشرقين » الثقات الأثبات المتضلّعين المتقنين المجيدين ! الذين لا يذعنون للحرف مكاناً إلا نبشوه وتقصوه ورموا بعضه فوق بعض « أخذاً بحزم المبادى... » الذي عرفت . وهو أسلوب فاسد عندنا لا يعول عليه في الحجة ، وإنما هو أسلوب ضروري حسن حين يراد منه المقارنة والتدبر لاستخراج المعاني من الألفاظ وبيان سرها من الحقيقة والمجاز ودقة التصوير للأغراض التي نصبت لها هذه الألفاظ

والنصوص التي جمعتها وحشدتها ورتبتها تختلف في حقائقها ومجازها في العربية ، وأنت لم تشرح حرفاً واحداً منها تبين عن وجه مجازه على العبارة التي وقع عليهـا ، ولو كنت فعلت ذلك أو أحسنته لطويتَ كل الذي نشرته عليّ وعلى القراء... تعلمني به ما غاب عني من « القرآن وهو في صدري ، والتفسير والحديث واللغة وهي شواغلي » — كما تقول — وأنا لا أضن عليك ، أيها الصديق ، بما يجعل لحشدك هذا — الذي رُعْتنا به حين قذفته علينا — قِراناً ونظاماً يسلك فيه ويمضي عليه ، ويَعرف به من لا يعرف سرّ البيان وكيف يكون مجازه على طريق اللسان العربي المبين ! !

فأصل الحرف « زلزل » من « زلّ الشيء إذا زلق فتحرك فتدأدأ ، فمر مراً سريعاً في ذهابه عن مستقره » . فلما ضعّفت

العرب الحرف ، فقالوا : « زلزل وتزلزل » ، ضاعفوا معنى هذه الحركة ، فكان معناها الحركة الشديدة العظيمة والاضطراب والتزعزع ، وتكرار هذه الحركة مرة بعد مرة ، حتى كأن بعض الشيء يَزِلُّ عن مكانه ، فينقض على بعض ويتساقط ويتقوض. وإذن ، فشرط مجاز هذا الحرف أن يكون لشيء يتحرك حركة عظيمة شديدة ، فالرجل يتزلزل ، والأقدام والأيدى والرؤوس والقلوب وما إليها من أعضاء الإنسان المتحركة حركة ما، وكذلك الحيوان كالإبل جاء راعيها بها « يزلزلها » أى يسوقها سوقاً عنيفاً كأنها تزلّ معه مرة بعد مرة ، والمكيل فى مكياله كالبر والشعير كل يتزلزل لأنه يحرك فيتحرك ، والدار والأرض والدنيا كلها تتزلزل لأنها تتحرك أو يجوز عليها الحركة فيتهدم بعضها على بعض، والنفس كذلك لأنها تضطرب فى حيزوم المحتضر اضطراباً شديداً يتجلى فى الكرب الذى يلحقه والضيق الذى يأخذه ، فينتزع الأنفاس ، ويضطرب القلب بالنبض الشديد ، ويزيغ البصر ، وتتحرك اليد والرجل فى الحشرجة حركة كثيرة شديدة بتردُّد النفس فى نزاع الموت والحياة. ومع ذلك فأنا أدع أشياء كثيرة لا أتناولك منها أيها الصديق .

أما الأذن... فالإنسان من بين جميع الحيوان هو الذى لا يحرك أذنيه ألبتة ، لا فى طرب ولا غضب ، فما بالك وهى ليست مجرد حركة ، وإنما هى حركة شديدة مهدِّمة لأنها زلزلة . فإذا علمت ذلك وتلقَّيته وتدبرته وأحكمته ولم يأخذك العناد عليه عرفت أنه لا يمكن أن تقول « أذنى زلزلت » لأن الزلزلة تتطلب أصلها المقرر وهو الحركة والانتقال والزِّلَّةُ بعد الزَّلة من مكان إلى مكان ولو على وجه المبالغة . فدع أذنك من آذان خلق الله الذين صوَّرهم فأحسن صورهم - إن شئت. وأنا لا أصنع فى كلامك هذا تعباً فأتلمس لك الخطأ كما تزعم ، ولكن انظر يا بشر كيف يتكلم الشعراء عن الآذان وعن الزلزلة ؛ يقول بشار فى مغنية :

لعمرُ أبى زُوَّارِها الصَّيدِ ، إنهم ... لفى مَنظر منها وحسنِ متاعِ
« تُصلِّى لها آذانُنا » وعُيوننا ... إذا ما التقينا والقلوبُ دَوَاعِ
إذا تَلَدَت أطرافَها العودَ « زَلزلتْ

قلوباً » دَعاها للوساوسِ دَاعِ
يروحون من تغريدها وحديثها ... نَشاوَى، وما تسقيهم بصُواعِ
لَعوبٌ بألباب الرجال وإن دنت ... أطيعَ الثُّقى والنفسُ غيرُ مُطاعِ

فانظر صلاة الآذان بالخشوع والإنصات والسجود للصوت، وتأمل زلزلة أوتار العود التى تزلزل القلب بوقعها وتوقيعها . وكيف أتم المعنى بذكر الوساوس وهى قلق واضطراب ... وأما أنت أيها العزيز

فلا تذهبْ بحلمِك طامياتٌ ... من الخُيلاء ليس لهن بابُ
فإنك سوف تحكمُ أو تناهى ... إذا ما شبتَ أو شاب الغرابُ

محمد محمود شاكر

صدر كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والفن والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات

وهو يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وثمنه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة